مناقشة ورد

« الرواية العربيـــة »

دفاع عن أصالتها وامتدادها

حمل الى صديق عددا من أعداد (الفصلية) التى تصـــدر عن المركز الثقافى الاسلامى بلندن باللغـــة الانجليزية بعنـــوان (الفصلية الاسلامية) وأشار الى بحث بهـــا بعنوان (ترجمـــة الأعمال الروائية الغربية الى العربية) بقلم كاتب دارس فاضل هو الأســـتاذ (متى موسى) .. وعلى الرغم من أن موضـــوع الترجمة مجال لبحث شيق ولا شك الا أن الذى أراد صـــديقى أن يلفت نظرى اليه هو ما تعرض له كاتب الدراسة من مناقشة طويلة حول الآراء التى ترددت فى مدى تأثر الأعمال الروائيـــة العربية المعاصرة بالترجمة تأثرا مباشرا وكاملا .. وفى هذا المجال يتناول كاتب الدراسة الأستاذ (متى موسى) كتابى (فى الرواية العربية) بالرد والمناقشة ، مع تعرضه لدراسات المرحوم الاستاذ محمود تيمور عن القصة العربية والأستاذ يحيى حقى عن القصة العربية الحديثة وانتمائها الى الترجمة انتماءا مباشرا .والدارس يقدم لدراسته عن الترجمـــة بمسح نقـــدى للاراء التى تعرضت لأصول الرواية العربية المعاصرة ، وواضح من هـــذا التعرض انه يميل الى الأخذ بالرأى القائل باعتبار الترجمـــة عن الأدب

الغربى هى الأصل الأول للأعمال القصصية العربيـــة المعاصرة مخالفا بهذا كل من سبقوه بمحاولة ارجاع القصة العربيةالمعاصرة الى تأثرات بتراثها العربى القصصى القديم . وحقيقة الأمر أننى لا أعرف الأستاذ (متى موسى) ولكننى اشهد له بتقصى البحث فى التقديم ثم بعد ذلك فى العرض تقصيا دءوبا وجادا ، وان كنت آخذ عليهماأخذتهوآخذه علىالكثيرين مندارسى تاريخ الروايةالعربية من داء الخضوع لأحكام مسبقة، غالبا هى احـــكام المستشرقين ، والاستسلام لها فى طواعية ويسر ، والاسراع الى تكذيب الناقد العربى أو الدارس العربى اذا ما تعارض رأيه مع ما اجمع عليه المستشرقون وتمشى مع سهولة البحث ويسر تناوله ، وفى حالة الأستاذ متى بالذات فانه وجد لزاما عليه لكى يستطيع أن يمضى فى جهده الكبير فى دراسة ترجمة الآثار الروائية الغربية وخاصة الانجليزية والفرنسية منها فى اثبات أن موضوع دراسته هذه هو صاحب الأثر الأول على ما يحفل به أدبنا العربى الحديث من آثار روائية وقصصية ، وبهذا يصبح للجهد المبذول فى البحث مايبرره، ويصبح موضوع البحث صاحب قيمة عظمى ولافتة . وخاصة وقد مهد هذا لهدفه من البحث برسم صورة لمصر للفترة التالية للاحتلال الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ وما ساد الحياة الثقافيـــة والسياسية والاقتصادية من انحطاط وصـــل بها الى آخـــر درجات التأخر والتخلف فى ظلال الجهل والفوضى والرشوة التى سادت الحياة المصرية تحت الحكم العثمانى الواهى وطمـــوح المماليك الشره ، ويؤكد بعد هذا أن ملامح النور قـــد ظهرت فى البـــلاد المصرية

والسورية (ويعنى بالسورية هنا الشام كلها) على يد البعثات التبشيرية والجماعات الدينية التى تكونت بنفوذ هذه الجمعيات فى البلاد . وينشط أعضاء هذه الجمعيات فى البدء بالقيام بعمليات الترجمة عندما يبدأ محمد على حملته الاصلاحية لانشاء المدارس المتخصصة لخدمة جيشه الكبير .

وموضوع الترجمة وكيف بدأت؟ ولماذا؟ ومن عمدها؟ ليس فى موضوعى فى شىء ،وان كان الجهد الذى بذل فيه شيقا وموضوعيا الى حد كبير ، ولكن الذى يلفت النظر هو ما ساقه من مناقشة لاثبات فضل عملية الترجمة الكامل على عملية الابداع الروائى العربى المعاصر . فأيا كانت أسباب الدارس ودوافعه فان تعرية أمة من ترادف تيارها الفكرى وتتابعه ، وتكامل حاضرها مع تراثها شىء ينبغى أن يعالج بالكثير من الشك والكثير جدا من الحذر والروية .

وقد اعتمد كاتب البحث على آراء لبعض الكتاب والدارسين تؤكد موقفه ، كما اعتمد على ما كان مترسبا فى ذهن مجمل الدارسين من آراء حملها الجيل الأول من الدارسين العرب متأثرين بآراء أساتذتهم من المستشرقين ، وينقل فى بحثه قول المستشرق (جب) فى كتابه دراسات فى حضارة الاسلام ، ان الكتاب العرب ، وجدوا الميدان خاليا من آثار أدبية مشابهة للأعمال الروائية التى أرادوا ابداع شبيهاتها ، وقد اضطروا تحت ضغط الحاجة الى اللجوء الى المصدر الذى يلبى حاجاتهم

بترجمة الروايات الفرنسية والانجليزية بدلا من محاولة بناء أدب روائى جديد بما فى ذلك من خلق شكل أدبى جديد خلقا تاما .. وقول هاميلتون جب هذا يكاد يكون تعبيرا عن صرخة ميخائيل نعيمة التى ظهرت فى « الغربال » والتى ترجمها الأستاذ متى فى انجليزية رقيقة ورائعة والتى تقول : « دعونا نترجم فاذا المتسول يتسول عندما لا يستطيع أن يعول نفسه والظمآن يتسول الماء من جاره عندما يجف بئره .. نحن فقراء مع أننا نتشدق بثروتنا المهجورة . فلماذا اذن لا نشبع حاجتنا من منابع خيراتنا التى تتدفق بالثروة المتاحة لنا » .. ثم يقول الأستاذ نعيمة .. « اننا نفتقر الى العدد الملائم من الأقلام والعقول لسد حاجاتنا الثقافية اذن دعونا نترجم » ..

وصرخة ميخائيل نعيمة وقول هاميلتون جب وكذلك تقريرات يحيى حقى التى اعتمد عليها الأستاذ متى موسى فى دراسته تمثل حاجة ملحة ضيقة فى مرحلة من المراحل أدت الى انتشار الترجمة لكسر المعبر الى الحضارة ككل .. ولكنها لا تثبت قضية أبدا .. تلك القضية التى تحاول أن ترجع أصولنا الروائية المعاصرة الى النقل والترجمة . والا كان معنى هذا أن كل ما اتصل بيننا وبين تراثنا الفكرى العربى والاسلامى هو الدين والدراسات الدينية وحسب . وهذا تعسف كبير . فقد ترجمنا العلوم والرياضة والطب ونظريات الفن والمعمار والبحرية وكل شىء لنعبر ماوضعنا فيه ظروف الاحتلال والتخلف ولنواصل مسيرتنا الحضارية القديمة .

ولكن الذى لا شك فيه ان مرحلة العودة الى الحضارة كانت مجرد مرحلة لم تنسنا على الاطلاق جذورنا العلمية والثقافية ، وسرعان ما اكتشفنا فى كثير من العلوم والفنون أن الأدوات العلمية والفكرية التى نستعملها فى انبهار ما هى فى الحقيقة الا تطوير لبضاعة كانت لنا وردت الينا . ولهذا فقد اتجهت دراساتنا بسرعة الى وصل حاضرنا المتطور بماضينا الثرى لنأخذ من منابعنا ولتكون اضافتنا الجديدة اكثر أصالة وعمقا واشد ارتباطا بتكويننا العقلى وميزاجنا الفكرى والحضارى . ولم يقل أحد فى ميدان من ميادين العلم والفلسفة والفكر أن حركتنا العلمية المعاصرة وكذلك حركتنا الفكرية وليدة الترجمة والنقل وحدهما وانما هى عند الجميع وليدة هذا بالاضافة الى ما ورثناه من علم وفكر تكشف عنه الدراسات المتتالية وتؤكده وتعمقه .

واعتمادنا على الترجمة فى ميدان القصة لا يعنى الا اننا كنا نتلمس معبرا الى الحضارة فى ميدان الأدب ، وكفى الترجمة انها وفرت لنا هذا المعبر ، أما الانتاج فشىء آخر مرة اخرى .. وما حاولنا اثباته فى كتاب (فى الرواية العربية) الذى صدر عام ١٩٥٩ هو أن الانسان العربى عرف القصص طوال تاريخه ، وانها جزء من عطائه الأدبى لم يتوقف لحظة واحدة ، حقيقة اننا اطلعنا على القصص الغربى ترجمة ونقلا بل وتقليدا فى بعض الأحيان فى مطلع حركتنا الأدبية المعاصرة ولكن الحقيقة أيضا اننا اطلعنا فى العصر العباسى والأموى على التراث العالمى وقتذاك فى العلم وفى القصة والفن وفى القصص على السواء . واننا ترجمنا ونقلنا

وقلدنا فى بعض الأحيان مورثات الحضارة العالمية فى كليلة ودمنة وأسمار الليالى وغيرها ، ولكنا حين نقلنا بعد حين قصة الحيوان فى كليلة وحكايات الفروسية فى الف ليلة رفضنا التصورات اليونانية للملاحم والتمثليات من حيث البناء الشكلى واكتفينا بمعرفتها اذ لم نجد فيها وفاء بحاجة لنا ، فلم نقلدها أو نحذو حذوها فى الانتاج الفكرى العربى الرسمى أو الشعبى على السواء .. وحين اتجه القصاص العربى الى الملاحم النثرية فى عنترة وذات الهمة وغيرهما كان يطوع شكل الملاحم اليونانية لما يريد هو فخرج بشكل آخر مختلف تماما ومتغير تماما — وهذا ما نقول انه حدث بالنسبة لنهضتنا المعاصرة ، فقد ترجمنا ونقلنا وقلدنا ، ولكن حين انتهت مرحلة الافاقة من الاغفاءة وابتدأ ابداعنا القصصى دخل فيه بالتأكيد وعلى القطع كل موروثنا القصصى ، وأثر فيه لا شك ما حمله لنا تراثنا من أشكال فنية قصصية سابقة .

وهذه القضية قديمة وقد أثارها كتاب (فى الرواية العربية) فى أواخر عام ١٩٥٩ ،ومن الغريب أن نجد الأستاذ (متى موسى) يعاود مناقشتها هنا مرة أخرى وفى بحثه بالانجليزية ليرفض كل ما هضمته الحياة الأدبية العربية هذه السنوات كلها وما اقتنعت به وما غيرت به من مفاهيمها ودراساتها ، وحين صدر هذا الكتاب أثار زوبعة نقدية رددنا عليها فى حينها ، ونبهنا الى خطورة المسلمات المنقولة عن المستشرقين فى مثل قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين :

« يقول أوليرى : أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف
« أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر فى شعر العرب لايرى فيه اثرا للشعر القصصى ولا التمثيلى ، ولا يرى الملاحم الطويلة التى تشيد بذكر مفاخر الأمة كالياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسى ، ثم هم فى عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب فى تأليف الروايات ونحو ذلك . ونحن مع اعتقادنا قصور العرب فى هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله . فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الأنظار وان كان الابتكار فيه قليلا) .

هذه الفقرة وردت كاملة فى كتاب فجر الاسلام للمرحوم الأستاذ أحمد أمين، والكتاب يعتبر واحدا من أمهات الكتب فى دراسة تاريخ أدبنا العربى ، ورغم أن طبعة هذا الكتاب الأولى صدرت سنة ١٩٢٨ الا أن دارسى الأدب العربى يعرفون أن هذا الكتاب بالذات كان المرجع الأساسى للكثير من الدراسات التى تعرضت للأدب العربى بخاصة والفكر العربى بعامة ، بل والدراسات الجامعية منها بالذات . وهذا الموقف الذى يقفه أحمد أمين يسير فيه وراء المستشرقين أمثال أوليرى ورينان ومرجوليوث وغيرهم ممن يسمون العرب بصفة المادية وضعف الخيال بل ويقررون أن العرب لا يعرفون المعنويات ولا قيمة لها عندهم . ولسنا نشك لحظة واحدة فى أن هذه الأحكام لم تصدر عن الرغبة العلمية الخالصة

لوجه الله والعلم، بل لعلها صدرت عن هوى كشفت عنه الأيام يريد أن يقعد بالعرب عند حد معلوم من ارتياد الفكر والثقافة ، ويصبح هذا الحد مباحا طالما بعد عن الابتكار والخلق ، وطالما سلم الأمم الغرب بالتفوق والغلبة ، ومن قديم قالوا أننا بلد زراعى ، وحديثا يعتبرون أرضنا منجما بكرا للطاقة يستنزف لتقدمهم الحضارى وحدهم .

وحين تفجأنا هذه التقريرات الظالمة المتجنية ، وحين تفجعنا هذه الروح المستسلمة المقلدة التى يعالج بها باحثونا ما قرر الغرباء المغرضون ، نتهم فى نظرتنا العلمية واخلاصنا للحقيقة ، ونوصف بالتهور ، وكأنما البحث العلمى أمر مقصور على الأيدى المستسلمة التى تتجمد أمام المسلمات الخاطئة ، وتقف مسلمة أمام ما قرره الأغراب وان كان فيه من التجنى والافتئات ما يفقد اشد العلماء هدوءا ووقارا وحكمة ، كل ما علمته اياه الأيام من تأن واتزان ..

لسنا فى واقع الأمر مجرد متحمسين حين نرد ظلما وقع على فكرنا العربى لا يقره عقل ولا منطق ، كما لا يقره البحث العلمى الحر ولا الحقائق التاريخية التى سلمت من التزييف والتحريف والتشويه .. وحين أراد الأستاذ احمد امين أن يدفع قول (أوليرى) وضع أمامه الصور الأدبية التى كانت اصلا فى الاتهام فتحدث عن الفخر والهجاء .. الخ .. وما هذه الأضراب من القول الا السبب الحقيقى الذى يستند اليه أوليرى وغيره من

المستشرقين فى اتهامنا بالعجز فى الخيال والقصور فى التعبير ، فكأنه دفع التهمة باثباتها مسلما بخلو أدبنا من صور الابداع الحقيقى فى الرواية والملحمة .. وعجب أن يتفوق اليونان فى الشمال والفرس فى الشرق والهنود فى الجنوب ويظل العرب وحدهم القاصرين العاجزين وكأنما تعمدوا أن يكونوا أقل الأمم حظا وأكثرهم تخلفا .. ليس هذا منطقيا ولا طبيعيا وليس التسليم به وقارا علميا ، وانما هو قصور فى البحث وعجز فى الأداة ..

والأعجب من هذا اننا حين تقدمنا فى كتاب (فى الرواية العربية) لنناقش هذه المسلمة المهلهلة ، ولنورد نماذج روائية بالمدلول العام عرفها العرب قبل الاسلام بحقب وحقب ، محللين لها تحليلا يستخرج المضامين الانسانية العامة التى تعالجها والتى تثبت قيمتها الفنية طلع علينا المرحوم الدكتور محمد مندور بحديث عن القصة الفنية واصولها التى يجب أن تتوافر فيها حسب مقررات النقد الأدبى الحديث ، وطلع علينا باحثون آخرون ، بتعريفات للنادرة والحكاية والقصة .. ولم يسأل أحد أصحاب الشاهنامة والالياذة عن هذه الأصول ، ولم يحاول أحد أن يخضعها لتلك التقسيمات ، وانما احترمت فى حد ذاتها ودرست على اساس انها عمل له كيانه وأصوله وسميت بالملاحم ، واعتبرت لونا فنيا قائما بذاته تستخرج من نماذجه الناجحة أصوله الفنية وقواعده .. كما لم يسأل أحد صاحب كيخوته ولا صاحب الديكاميرون عن الأصول الفنية للرواية

والقصة ،ولم يقف أحد طويلا ليناقش: هل دون كيخوته رواية تخضع للأصول النقدية للرواية أم لا . وانما استقبلت بمنتهى الاحترام واعتبرت أعمالا قصصية تمهد لظهـور الفن القصصى المتكامل وتطوره ، وترسم خطوة فى الطريق الذى قطعه المنتجون والدارسون جميعا لهذا الفن .. ولم يتهم أحد العقلية الغربية بالقصور ولا المادية لأنها لم تعرف فن القصة كما حدده الدكتور مندور ، بل اتجه الباحث بدلا من هذا الى درس تراثها فقـدره وعرف له مكانه واحترامه ، واعتبره تمهيدا طبيعيا لما بعده ..

ولكننا هنا فقط الذين نتعرض دائما للنظرية المزدرية التى تستكثر علينا ما هو حق طبيعى لكل أمة ولكل شعب .. فحينما قدمنا نماذج من الأعمـال الروائيـة بالمدلول العـام من عصور الاسلام وما قبل الاسلام انبرى أكثر من دارس يسأل عن نوع هذه القصص أهى رواية أم قصة قصيرة أم نادرة أم ماذا .. ؟ ومادامت هذه النماذج لا تخضع لواحد من هـذه القوالب التى تعلمناها فى المـدارس الثانوية فهى ليست فنـا وليست بشىء ، وليس ما نقدمه ببحث مادام لم يحترم معلومات المرحلة الثانوية فيقدم لها ما يرضيها ويتمشى مع مسلماتها .. أما الدكتور المرحوم مندور فقد تفضل والقى علينـا درسا فى الفـرق بين الرومان والكونت والنوفيـل وهى الاصطلاحات التى تحددت فى القـرن التاسع عشر ذاكرا أن الفن القصصى لم تكتمل مقوماته الا فى هذا القرن .. وزاد المرحوم الدكتور طه حسين فلفت الدكتـور

مندور الى أن الغربيين قد بدأوا يعرفون صورا من هـذا الفن منذ بدء عصر النهضة أى منذ دون كيخوته لسيرفانتس ثم ما تلاه من قصص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ويقول الأستاذ متى موسى فى بحثـه المنشور بالانجليزية منذ شهور فى (الفصلية الاسلامية) :

« لقد أصر فاروق خورشيد على أن الفن الروائىوالقصصى ليس جديدا على الاطلاق بالنسبة للعرب ولم يكن من بين الفنون التى استعارها العرب المحـدثون تماما من الغـرب فى بداية نهضتهم الثقافية المعاصرة فى أواسط القرن التاسع عشر عبـر حركة الترجمة ، وقد حاول أن يعضد أدلته على هذا تعضـيدا حماسيا ولكنه ليس يقينا بأن قدم نموذج تتمثل فى قصة مضاض ومى من كتاب التيجان لوهب بن منبه وهو نموذج يقوم علىموتيفة تعتبر عالمية اذ هى شبيهة بالموتيفة التى قام عليها عمل شكسبير فى روميو وجولييت وبرناردين دى سانت بيير فى بول وفرجينى» .

ويستطرد قائلا : « الا أن نقطة الضعف الأسـاسية فى نظرة خورشـيد هى خلطه الواضح بين الحكاية أو الرومانس الموجودة فى الحكايات الموجودة قبل الاسلام أو الاسلامية والتى تتمثل فى الف ليلة وبين ملامح القصة والرواية كما نعرفها اليوم، ولا ينكر أحد أن العرب كغيرهم من الشـعوب عرفوا القصص والحكى ولكن أحدا لا يمكن أن يقول أن قصصهم تشابه القصـة كما نعرفها اليوم . ومن المؤسف أن خورشيد لم يحاول أولا أن

يوضح لنفسه تصوره للرواية اذ ان كتابه يبذل جهدا ضخما فى اثبات مسلمة واضحة لا شك فيها » .

وهذا الذى يقرره الأستاذ متى موسى لو كان واضحا كل هذا الوضوح ما احتاج منه الى مناقشة يستهل بها بحثه الذى نشير اليه وتستغرقه فترة طويلة من البحث ويجد من الضرورى ان ينقضه بأدلته وشواهده قبل ان يستمر فى دراسته حول حركة الترجمة الروائية واثرها على الأدب المعاصر .. فالواقع ان القضية لم تكن قضية اثبات وجود الشكل الأدبى بقدر ما كانت قضية اثبات وجود الفن الروائى نفسه وهذه القضية كانت تحتاج الى اثبات ، والى اثبات مصر ومتحمس ، فما كنا ندرس فى ادبنا العربى فى مناهج المراحل الأولى أو حتى فى مناهج الدراسة الأدبية المتخصصة سوى الشعر واغراضه وسوى النثر بصفته اما خطابة واما رسائل ، أما القصص فقد اغفلها اصحاب النقد من المناهج لما سبق عندهم من الآراء مثبتة بأقوال اوليرى وجب ورينان ومرجوليوث وغيرهم..وساعتها كان لابد من اثارة القضية برمتها ، وساعتها دارت المناقشات العنيفة وتصدى الكثيرون لها كما يتصدى الآن الأستاذ متى موسى وتقدمت مترددا لأهمس حقيقة صغيرة ولكنها زاهية ناصعة ، تلك هى ان الأدب العربى قد عرف صورة متكاملة من القصة قبل ذلك بكثير اى فى القرن الرابع الهجرى فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين على الأكثر حين عاش الناس فى وطننا

العربى على متعة التحلق حول راوى قصة عنترة ابن شداد التى أخرجها يوسف بن اسماعيل كاتب العزيز بالله الفاطمى، وعلى غيرها مما سبقتها أو تلتها من أمثال قصص الف ليلة وسير الظاهر وسيف وذات الهمة .. وهذه الأعمال لا تقل عند النظر المنصف، وفى ميزان النقد النزيه عن دون كيخوته او غيرها ، وتتميز كلها بوجود الحبكة القصصية والدراسة التحليلية لنفوس الأبطال ، وتعقد الأحداث وتشابكها ، مع مساواتها لها فى وجود المضمون الانسانى العام ، والأهداف الاجتماعية والسياسية الظاهرة .. ولو اننى لم اشك كثيرا فى أن أساتذتنا الدارسين لن يتقبلوا هذا الراى ، فهم قد درسوا من العملين دون كيخوته فقط ، أما عنترة وغيرها فما كنت أحس الا انهم القوا عليه الأحكام القاء دون أن تكون تحت أيديهم الدراسة الواعية التى يرضى عنها ضميرهم العلمى، والتى تستخرج لهم الأصول الفنية الحقيقية لهذه الأعمال التى تشمخ بأنوفها شموخا حقيقيا يضعها فى مصاف الأعمال الخالدة الكبيرة التى تمثل خيال أمة وتذوق شعب متفتح يعيش فى المعنويات ويعرف قدرها ويقدس من يمثلها من الأعمال والشخوص جميعا .. وقلت يومها فى حدة اننى لم اشهد فى دراستنا الأدبية الا دراسات حول الملاحم فارسيها وهنديها ويونانيها ، أما سيرنا العربية التى اصطلحوا على تسميتها بالسير الشعبية ، وأما غير السير من روائع الفن العربى القاص، فلم تحظ حتى الآن بالتفات حقيقى من جمهرة الدارسين العرب الذين آثروا أن يكون مجال تفوقهم كلاما يلوكونه حول الاليناذه

والشاهنامة ، ولا عجب فقد اتبعوا قول أوليرى ومن بعده أحمد أمين ثم باقى الدارسين .

وناقشت المرحوم الدكتور محمد مندور صاحب كتاب النقد المنهجى عند العرب الذى كان يعرف جيدا أن النقد الأدبى العربى تأثر بأشياء كثيرة حالت دون ارساء قواعد متطورة تطابق نقدنا الحديث الذى يقوم على الدراسات النفسية والتحليلية والمذهبية ، والذى يعرف الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية والمقارنة وغيرها ، ومع هذا فقد كرس جزءا كبيرا من جهده وعمره لدراسة هذا النقد العربى وأسهم بهذا — لا شك — فى تطور نقدنا المعاصر الى جوار ما وفد علينا من دراسات لتطور النقد ومذاهبه فى الغرب ، وذكرته بأن عدم وجود هذه الاضافات التى يريدها أصحاب التقعيد فى هذه الروايات الأولى عند العرب لا يمنعنا من دراستها ، كما أنه لا يعنى أن العرب لم يعرفوا القصة ، والا كان معنى عدم وجود المدارس النقدية بمفهومها المعاصر عند العرب مانعا من دراسة النقد العربى ودليلا على عدم معرفة العرب بالنقد مثلا ..

الأمر أننا نريد أن نثبت معرفة العرب لفن القصة لا بالقصة التى يصدق عليها ما ذكره الأستاذ متى وسبقه اليه الدكتور مندور عن اختلاط مفهوم القصة عند العرب وذلك لنحطم الخرافة التى تزعم القصور فى العقلية العربية ولنحقق شيئا من الانصاف فى النظرة العلمية الى الأدب العربى ، أما جعل القضية هى

هل أثرت هذه الروايات العربية كفن فى الفن القصصى العربى المعاصر أم لا ، فقضية معكوسة مغلوطة لأنها تشبه وضع العربة أمام الحصان ، فنحن بعد لم ندرس هذا الفن القصصى العربى دراسة نطمئن اليها وتكشف لنا عن أصولها وقواعدها من ناحية البناء ، وعن مضامينها الانسانية وقيمها الفنية من ناحيـــة التعبير عن شعب متطور نام له كفاحه وله مثله وله قضاياه وقيمه . ولا يمكن بحال أن نسأل عن العلاقة بين قصصنا المعاصر والقصص العربى المتوارث الا بعد أن نعرف هذا التراث معـــرفة جيدة . أما الجزم بأنه لم يكن ليؤثر بحال على انتاجنا المعاصر فهو أولا رجم بالغيب وهو ثانيا فصل لجيل الـــكتاب المعاصرين عن أمتهم كلها وعن انتاج هذه الأمة الذى يمثل عقليتها وعقائدها وموقعها من الحيـــاة ..

ولذلك دعونا الدارسين الى بحث هـــذا التراث العـــربى الروائى بقدر من الاحترام له ولأصحابه ولجمهور المتلقين الذين تقبلوه وعاشوا فى متعته عسى أى يجدوا فى كنـــوزه ما يحطم خرافات كثيرة اعتبرت حقائق علمية مسلمة من باب الـــكسل والاهمال حينا ، ومن باب النظرة المرتعشة الوقور حينا آخر .

وللمرحوم الدكتور فؤاد حسنين كتاب اسمه « قصصنا الشعبى » نشر عام ١٩٤٧ ، قال فيه فى ص ٢٠ :

«حتى عهد قريب كانت القصة فى أوروبا كما مهملا لم يعن بها أديب ، ولم يلتفت اليها مؤرخ . لذلك ظلت الآداب الأوروبية

قرونا عديدة محرومة من القصة بعيدة عنها فى الوقت الذى كان فيه الشرق قد سما بها وأوجد فيها المجاميع الكثيرة كألف ليلة وليلة . فاذا كان الأمر كذلك فلا غرابة اذن اذا راينا الشعوب الشرقية خاصة السامية منها — اعنى شعوب الجزيرة العربية وبعض اجزاء افريقيا — تستعين بالقصة فى اغراضها الأدبيـــة كما اتخذتها كتبنا الدينية وسيلة من وسائل الاقناع والدعاية ».

ولعل هذا الراى يوافق الى حد كبير اللمحة الذكية التى كتبها الأستاذ أحمد عباس صالح حين قال أن الغرب عـــرف الملحمة والدرامة ولكنه لم يعرف من الفنون القولية فن القصة بينما عرف العرب هذا الفن ولم يعرفوا الملحمـــة والدرامة . ويزيد على هذا الدكتور فؤاد حسنين فيقرر أن القصة قد انتقلت فى العصور الوسطى عن طريق السلم والحرب مع الحضـــارة الاسلامية الى الغرب فاستغلها القصاص والأدباء والمصـــورون استغلالا عظيما .. وعدد الدكتور فؤاد حسنين مجاميع من هذه القصص الشرقية الاسلامية ترجمت ودونت وظهرت فى ايطاليـــا والمانيا وروسيا والدانيمرك والنرويج ابتداء من عام ١٥٥٠ اى فى الفترة المواكبة لأول تباشير القصة الغربية كما قرر المرحوم الدكتور طه حسين مصححا ما قرره الدكتور محمد مندور .

فى كل هذا لم اكن ازعم ان العرب عرفوا الفرق بين الكونت والرومان والنوفيل وانما زعمت فقط انهم عرفوا القصـــة كفن قولى وكتبوها وانهم تذوقوها ايضـــا على نطاق واسع وكبير ،

وان ما عرفوه جدير بالدراسة والاحترام بصرف النظر عن مقررات ومصطلحات القرن التاسع عشر الذى تؤكد النظرة العلمية انه ليس نهاية العالم .

وتصبح القضية اكثر وضوحا اذا لاحظنا ان ما كان يمكن أن نسميه قواعد القصة فى القرن التاسع عشر قد تغير تغيرا كاملا بل ولعله تحطم على أيدى الكثيرين من رواد القصة وكتابها فى نهايات القرن العشرين التى نشهدها هذه الأيام فلا يستطيع احد أن يقول أن منهج ديستوفيسكى فى الرواية هو نفسه منهج هوجو ، أو هو ذاته منهج كامى ، أو منهج كتاب الموجة الجديدة فى فرنسا وانجلترا مثلا .. ان الشكل يتغير بتغير الانسان المتلقى والانسان الكاتب ، وبتغير روح العصر ومتطلبات روح العصر ومتطلبات العصر .. والشكل الثابت أو الفورم الذى يصطلح عليه النقاد فى مرحلة ادبية سرعان ما يصبح معبرا الى شكل جديد يفرض نفسه على الفن الروائى والقصصى ، فالمسألة ليست مسألة أننى زعمت أن موازين القصة القصيرة النقدية فى مطلع القرن تساوى أو تنطبق على قصص الف ليلة وسيرة عنترة . وانما كل ما أردت اثباته هو أن هذا الفن من هذا الفن ، وانهما صورتان لفن واحد . احدهما ظهر فى بيئة اسلامية فاتخذ منهجا بذاته ، والآخر معاصر ظهر فى بيئة صناعية متطورة فى اوروبا فاتخذ منهجا مغايرا .. وازعم ان فن اليوم القصصى يتخذ لنفسه منهجا مغايرا ومخالفا تمام سواء على يد كتاب الغرب أو على يد الكتاب العرب المعاصرين

لما يتميز به العصر من تمزق وضـــياع وقضايا خلقها التقـــدم التكنولوجى المخيف .

اننا لا ننكر اننا عرفنا من الغرب الوانا من الانتاج القصصى ساعدتنا على العبور الحضارى ، ولكننا ننـــكر أن كتابنا حين كتبوا القصة انفصلوا عن تراثهم الذى تعلموه وعاشوا عليه من طفولتهم ثم أطلعوا عليـــه فى رجولتهم وكهولتهم حين انتجـــوا القصة . وما محاولات فريد أبو حديد فى عنترة والوعاء المرمرى وما محاولات طه حسين نفســـه فى أحـــلام شهرزاد ومحاولات الحكيم فى شهرزاد والسلطان الحائر وأهل الكهف وما محاولات غيرهم فى كل حقبة من أحقاب نهضتنا المعاصرة الا الدليل على الانتماء الوجدانى والفنى للقصص العربى عند كتاب اليـــوم . أما الشكل فقد أخذه توفيق الحكيم مثلا ثم عاد فمزقه فى «المسرواية» وفى غيرها من المحاولات .

ولست فى الحقيقة أدرى سر التحامل على مسلمة علميـــة الا اذا كانت المسألة أننا مازلنا نعيش فى عقـــدة النقص التى ولدها انفتاحنا الحضارى المفاجىء مع الغرب بعد عصور طويلة من التخلف والانعزال . ان خلاصنا من هذه العقـــدة لا يأتى الا بالربط الجاد الدارس بين ما أخذنا من الغرب وبين ما كان لدينا أصيلا وعميقا ، وليست هذه دعوة متحمسة ولكنها وبالذات فى مجال الانتاج الأدبى دعوة ضرورية وهامة ، فمن لا أمس له لا غد له ، واذا كان ميخائيل نعيمة قد صرخ فى مطلع الحركة

الثقافية المعاصرة «فلنترجم» . . فاننى أصرخ الآن «فلنقرأ تراثنا» . . فلنستوعبه ، فلندرسه ، فلنستلهمه ، ثم فلنضعه فى مكانه الصحيح فى ركب الحضارة . .

وشكرا للأستاذ متى موسى و « للفصلية الاسلامية » الصادرة عن المركز الثقافى الاسلامى بلندن أن أتاحا لى هذه الفرصة لفتح النقاش فى موضوع هام ومتجدّد ، وخاصة بعد أن استجاب الكثيرون من دارسى الأدب العربى لدعوة كتاب (فى الرواية العربية) خلال هذه السنوات وظهرت دراساتهم المتخصصة عن السير الشعبية وغيرها من فنون الأدب الروائى العربى . وظهرت دراسات مقارنة تحاول الربط بين بداية الفن القصصى الغربى وبين صور القصة العربية المعروفة فى نهايات القرن السادس عشر والسابع عشر والتى ترجمت الى الغرب عن طريق الاحتكاك الذى أوجدته الحروب الصليبية أو عن طريق الاندلس . فلعل اعادة فتح هذا الموضوع ترسى حقائق جديدة نحتاجها فى فهم علاقة حاضرنا بأمسنا وتمهد لنا طريق ابداع عربى مشارك فى الغد للانتاج الفنى المعبر عن قيم العصر الحضارية ومشاكل الانسان فى دنيا العصر .

فاروق خورشيد